



كنت شاهدا على هجوم لندن

في الجامعة في القاهرة، ومعركة الكرامة في عمان (كنت عاملا في مصنع) عام 1968 التي خاضها أبطال الجيش الأردني بقيادة الجنرال مشهور حديثة الجازي، جنبا إلى جنب مع الفدائيين، وأعادت للأمة الكثير من كرامتها بعد هزيمة يونيو، أقول إن شخصا مثلي تعود أصوله ومنابته إلى منطقة ملتهبة، لم أشعر بالخوف أو القلق، وإن كنت قد تعاطفت مع ما يقرب من ثلاثة آلاف شخص كانوا محاصرين مثلي في البرلمان من جراء الهلع والقلق اللذين سادا صفوفهم في عمليات إجلاء منظمة وسلسلة بشكل لافت، ودون أي تزامم أو صراخ أو فظاظة من رجال الأمن.

لندن ظلت بعيدة عن أي هجمات إرهابية منذ تفجيرات القطارات الأرضية الانتحارية، في تموز (يوليو) عام 2007، التي أودت بحياة 56 شخصا، ونفذتها خلية تابعة لتنظيم «القاعدة»، وقال منفوها في أشرطة مسجلة تضمنت وصيتهم، بأنها جاءت انتقاما لغزو العراق واحتلاله ومقتل مليون شهيد من أبنائه.



عبد الباري
عطوان

لم يفاجئنا إصدار تنظيم «الدولة الإسلامية»، بياناً بثته وكالة «أعماق» الناطقة باسمه، تتبنى فيه هذه العملية الإرهابية، فبصماتها كانت واضحة منذ الدقيقة الأولى، للأسباب الأربعة التالية:

أولا: تزامن هذا الهجوم مع الذكرى الأولى لتفجيرات بروكسيل العام الماضي، التي أسفرت عن مقتل 23 شخصا، وأعلنت «الدولة الإسلامية» انتماء الخلية المنفذة لها.

ثانيا: أسلوب الدس بات علامة مميزة للخلايا التابعة لتنظيم «الدولة»، وتنفيذا لفتوى أبو محمد العدناني، المتحدث باسمها، التي صدرت قبل اغتياله بأمريكا، كرد على انطلاق الحرب على عاصمتها الموصل (في العراق)، والاستعداد لهجوم على الرقة (سوريا) من قبل قوات التحالف

أن توجد ككاتب وصحافي في قلب الحدث، وبمحض الصدفة، للحديث عن «الإرهاب»، وأخطاره، بحكم التخصص العلمي والأكاديمي، فهذه «نعمة»، توفر لك فرصة ثمينة للرصد، وتسجيل الوقائع، وقياس ردود الفعل، ورسم صورة أقرب إلى الدقة للتطورات، وكيفية التعاطي معها.

هذا ما حدث معي يوم الأربعاء الماضي، يوم حدوث هجوم لندن الذي أوقع ثلاثة قتلى، وأسفر عن إصابة 29 شخصا بعضهم إصابته حرجة، فقد دعيت لإلقاء محاضرة في البرلمان البريطاني للحديث عن الإرهاب، وجذوره، وحواضنه، ومنظّماته، وأخطاره، وأسبابه، وأدواته الإعلامية، استنادا إلى كتابي الأحدث: Islamic State: The Digital Caliphate، وفوجئنا بقوات غربية (قوات مكافحة الإرهاب) لم أر مثلا على مدى 40 عاما من الإقامة في لندن، ملثمة، ومدمجة بأحدث البنادق الرشاشة «مثل سلاح نينجا»، تأمرنا بإخلاء القاعة، والنزول إلى الطابق الأرضي عبر السلالم، وإبلاغنا في الوقت نفسه بحدوث عمل إرهابي ضخم، دون إعطاء تفاصيل.

جرى نقلنا من باحة إلى أخرى، نوابا ووزراء سابقين وحاليين، ومساعدين دون أي تمييز في المناصب، فالمهم هو سلامة الجميع، وبقينا داخل المبنى حتى ساعة متأخرة من الليل حتى التأكد من انتهاء الهجوم، ورفع حالة حظر التجول في المنطقة المحيطة بالبرلمان التي جرى إغلاقها بالكامل، وبعدها سمح لنا بالخروج بعد أخذ الأسماء والعناوين، ولم يقولوا لنا الوزراء والأمراء والشيوخ أولا، فالجميع سواسية.

كشخص عاش ظروف عدة حروب الأولى عام 1967 في قطاع غزة، والثانية عام 1973 عندما كنت طالبا

الستيني، علاوة على روسيا، وكان أول وأبرز تطبيق لهذا الأسلوب على يد مواطن تونسي بشاحنة على شاطئ نيس في حزيران (يونيو) الماضي (قتل 84 شخصا)، وفي برلين على يد مواطن تونسي آخر في كانون الأول (ديسمبر) الماضي (أسفر عن مقتل 12 شخصا).

ثالثا: تنظيم «الدولة الإسلامية» في ظل الخسائر الأرضية الكبيرة التي تعرضت لها في العراق (خسارة الفلوجة، تكريت، الرمادي، وأحياء الموصل الشرقية وبعض الغربية)، وفي سوريا (منبج، الباب، كوباني، تدمر، وقرب بدء الهجوم على الرقة)، بدأ بلحا إلى تطبيق «الخطبة ب»، أي الانتقال إلى التوسع في الهجمات الإرهابية، وفي الغرب تحديدا. رابعا: مواقع «الدولة» على وسائل التواصل الاجتماعي احتفلت بشكل لافت بهجوم لندن، قبل إعلان مسؤولية التنظيم عن العملية، ومن يتابع هذه المواقع، وأنا أحدهم، يلمس حالة الفرح بالتنفيذ، والإعجاب بشجاعة المنفذ.

هناك ثلاثة خيارات رئيسية باتت أمام تنظيم «الدولة الإسلامية» في المرحلة المقبلة، أولها التمدد إرهابيا، كبديل للانكماش الجغرافي لدولته، والتركيز أكثر على الجانب العقائدي ونشره على أوسع نطاق ممكن كإيديولوجية بعيدة المدى لبعث الخلافة الإسلامية، والهجرة إلى الأماكن الرخوة، أو الدول الفاشلة، مثل ليبيا واليمن والصومال والساحل الإفريقي كبديل لخسارة قواعده في سوريا والعراق ولو كخيار مؤقت، انتظارا لتوفر فرص العودة فيهما لاحقا، وهذا غير مستبعد، لأن انفراط التحالف الحالي الذي يتوحد على أرضية محاربتها، (أي الدولة)، احتمال وارد بعد استعادة الموصل والرقة، لوجود تناقضات استراتيجية، مثل إعلان الأكراد المتوقع لدولتهم، وجعل كركوك عاصمة لها، وعدم تحقيق المصالحات الوطنية،

واستفحال التحشيد الطائفي على جانبي المعالجة المذهبية، وفي العراق خاصة. اختيار لندن لتنفيذ هذا الهجوم لم يكن صدفة، واختيار البرلمان معقل الديمقراطية الغربية الأقدم ومحيطه كان اختيارا محسوبيا بدقة، لأن لندن تكتسب أهمية سياسية خاصة بحكم تاريخها وموقعها الجغرافي، إضافة إلى عنصر أهم، وهو دورها الإعلامي، ومنفذو مثل هذه الهجمات، ومن يقفون خلفهم، يسعون إلى احتلال عناوين الرئيسية في وسائل الإعلام العالمية وليس هناك أفضل من لندن في هذا المضمّن. نعيد ونكرر بأن «الدولة الإسلامية» في ظل خسارتها المحتملة لمعظم أراضيها وربما كلها، ودولة خلافتها بالتالي، ستكون أكثر شراسة وخطورة، من حيث عودتها إلى استراتيجية تنظيم «القاعدة»، الأم، أي الهجمات الإرهابية، بعد تخلصها من أعباء إدارة المدن التي كانت تسيطر عليها، ومتطلبات «مواطنيها» من الخدمات الأساسية مثل الصحة والتعليم والأمن، وهي أعباء باهظة التكاليف ماليا ويشريا.

لا نستبعد أن تشهد المرحلة المقبلة تنافسا أو تعاونا بين أخطر تنظيمين إسلاميين إرهابيين في العالم أي «القاعدة» و«الدولة»، فالأول في حال نهوض انطلاقا من قلب الجزيرة العربية واليمن تحديدا، وتترجمه قيادة جديدة شابة، والثاني في حالة انكماش جغرافي سيدفعه إلى الانتقام والثأر من مهاجميه وأعدائه عبر التفجيرات الإرهابية. الإرهاب مرشح للعودة، وبصورة أكثر قوة في الأشهر وربما السنوات المقبلة، لأن الحواضن والأسباب والنزعات الثأرية والانقسامات الطائفية والفوضى الدموية ما زالت موجودة، بل مرشحة للتوسع، في ظل عدم وجود أي مخططات حقيقة لإنقاذها، وتقديم النموذج الجانبي والبديل في مرحلة ما بعد استعادة الموصل والرقة.. والأبواب مبنّنة.